أفعال الصّمت
في ضوء نظريـة الأفعال اللّغويـة

لـ: فاندا ميكسيك (*)
ترجمة: د. يونس حسايني (**)
hsainiyouness87@gmail.com

الملخّص

لم تعد اهتمامات التداوليات محصورة في قضايا لغوية صِرف؛ بل أضحت تروم الانفتاح الشّامل (Universel) على مختلف أنواع التخاطب، سواء كان لغويا أم غير لغــوي؛ ما دام هذا التخاطب أو ذاك، يتعلق بالمســتوى العملي الذي على أساسه تصبح الأقوال أفعالاً إنجازية تُحدِث آثارا تأثيرية Perlocutoires وفق ما تمليه الشروط المقامية والمقالية، كما رســم ذلك مؤسّسو النّظرية (ج. -ل. أوستن وَ ج. -ر. سورل وَ ب. -ه. غرايس...). ونحن نعد ما توصلت إليه الباحثة، والمترجمة فاندا ميكســيك في مجال اللغويات، أمراً مثيراً وجاذباً للاهتمام، نظرًا لما بذلته من جهد في محاولة إرساء مبادئ نظرية الأفعال اللغوية من خلال أفعال الصمت، في إشارة منها-بوجه غير مُعلن- إلى أن ما يصدُق عــلى الأفعال اللغوية يصدق تماماً على أفعــال الصمت. لكون هذه الأفعال،

هي أيضا تتألف من قــوة إنجازيــة Force Illocutoire ومن محتوى قضوي Contenu Propositionnel. بل إن الباحثة ســعت إلى وضع تمييز بين نوعين مــن الصمت: «الصمت اللغوي»، وبين «الصمت غير اللغوي» الذي يعادل الصمت الطبيعي. وقد كان تركيزها على النوع الأول للاعتبارات الآتية:

1. لمكانتــه الجوهرية في النظرية ككل -إذا ما جعلنا فعل الصمت مقابلا تماما للفعل اللغوي؛

2. ولكونه يمثــل إضافة جديدة -في ظل غياب مثل هــذه المقاربات الجادة والرصينة- إذ يسْهم بوجه أو بآخر في تطوير وإغناء مجال التداوليات الرّحب عموما ونظرية الأفعال اللغوية خصوصا في مستوياتها الثلاثة.

الكلــمات المفاتيح: نظريــة الأفعــال اللغوية-الفعــل اللغوي-الفعل غير اللغوي-أفعال الصمت-فعل القول.

Les actes de silence à la lumière de la théorie desactes de langage(1)

Abstract

Pragmatics' interests are no longer limited to purely linguistic issues; It is also a way to fully open up, universally, to all kinds of speech, whether linguistic or non-verbal; as long as this or that communication is related to the practical level at which words become an achievable /accomplished acts which produce effects that

(1) المقــال صادر عن مجلة الدّلاليات والتّداوليــات Revue de Sémantique et Pragmatique التابعة لجامعة «أورليان Orléans» الفرنسية سنة 2008، عدد 23، ص 94-75. رابط المقال:
https: / /2u.pw /NUQZEHpU

are perlocutionary according to the requirements of evaluative and comparative evidence, as established by the founders of the theory (J.L. Austin, J.R. Searle, P.H. Grice,...). We consider the findings of the researcher and linguist Vanda Mikšić in the field of linguistics interesting and attractive, for she tried to establish the principles of the theory of linguistic acts through acts of silence, pointing out -in an unspoken way- that what is true of linguistic acts is perfectly true of acts of silence; because these acts, too, consist of Illocutionary Force and Proposed Content, but she sought to distinguish between two kinds of silence: «Linguistic silence" and «non-verbal silence" which is equivalent to the natural/innate silence. Her focus was on the first silence because of these below considerations:

a (its intrinsic place in theory as a whole - if we make the act of silence completely counter to the verbs of linguistic action- first ;

b) but also because it represents a new addition -in the absence of such serious and sober approaches- as it contributes in one way or another to the development and enrichment of the vast field of linguistic deliberation in general and the theory of linguistic acts in particular at its three levels.

Keywords: Speech Acts Theory, Speech Act, Non-Linguistic Act, Acts of Silence, Locutionary Act.

تمهيد

كلّ تبادل لغوي يتخلّله صمت بشكل أو بآخر، بحيث؛ يمكنه تزويد المشاركين بمعلومات أساسية وأحيانا بمعلومات غنية، مثل تلك التي يتم نقلها عبر ملفوظات أو تسلســـلات بشكل أوسع. نود في هذا المقال، دراســـة فئة خاصة من الصمت في

ضوء نظرية الأفعال اللغوية (سورل 1972، سـورل وفاندرفكن 1985). فنحن لا ننوي التظاهر، من خلال هذه المقاربة أنها سـتوفر حلولا لجميع الإشـكالات التي أثارهـا هذا النوع من الصّمت، ولكن؛ فقط لإبراز، أنه بتعيين موضوع السـؤال في مثل هذه المصطلحات، يمكننا تنظيم مجال دراسـة معقد بوجه خاص، ومنح فئات مفيدة للأبحاث الأكثر طموحا.

وطبقا للمنظور الذي سـوف نتبنـاه، فإن أي فعل صمت، سـواء كان تعاقديا Conventionnel أو غـير تعاقـدي Non-conventionnel، يتألف من قوة إنجازية Force illocutoire ومحتوى قضوي Contenu propositionnel؛ وبعبارة أخرى، مهما كانت هذه المادة خالية من المستويين الصوتي والتعبيري، فإنها «تشكّل» بواسطة فعل بلاغي (أو قضوي) وبواسطة فعل لغوي. وفي حالة تصور فعل الصمت التعاقدي عـلى أنه فعل إنجازي مباشر، فإنه يجب النظر إلى فعل الصمت غير التعاقدي في هذا السـياق على أنه إنكار Dénégation إنجازي يؤوَّل تأويلاً غير مباشر. ويترتب عن ذلك، أن التحليل التجريبي لفعل الصمت غير التعاقدي يحشد اشتقاقا تداوليا يهدف إلى إعادة بناء التأويـل، انطلاقا من إنكار إنجازي معين، الـذي تم التقيّد به فعلا. وفي أبسـط الحالات، يمكن القول بأن هناك علاقـة منهجية بين المحتوى القضوي للفعل الذي رُفـض (أو تم إنكاره) ومحتوى الفعل غير المباشر. وكما سـنرى، فإنه يجب أن تستند العملية التفسيرية أحيانا إلى اسـتغلال واسع النّطاق للآثار التأثيرية Perlocutoires النّاجمـة عن فعل الإنكار، بحيث يظل المحتوى القضوي للفعل غير المباشر نسبيا غير محدّد.

أولا- الصمت اللغوي والصمت غير اللغوي

الصمت ظاهرة معقدة عندما يتجلى كغياب داخل اللغة البشرية، قد يكون لغوياً كما قـد يكون غير لغوي. فالصمت غـير اللغوي يُعادل الصمـت الطبيعي، كونه

في هذه الحالة، لا يُحدِث أي تواصل شـفاهي؛ ومن ناحيـة أخرى، حتى لو التزمنا الصمـت اللغوي من وجهة نظر صوتية، فإننا سـندرك في الحـال أنه مثل الصمت في الموسـيقى عنصر لا يتجزأ مـن البنية اللغوية. ومن المؤكد، أنـه إذا كان في بداية أو نهاية الملفوظ، فإن شكله سـيكون غير قابل للتحديد، ومن ثم؛ فهو غير واضح (بتعبير أندريه مارتيني، 1970). لكن من اللحظة التي يظهر فيها داخل الملفوظ، فإن شكله على العكس، يحدَّد من قبل السياق. في هذه الحالة، هناك مدة زمنية وقوة Une intensité؛ هذا المفهـوم الأخير – وهو مفهوم ذاتي ونوعي – يغطي واقعا غير قابل للقياس، ولكنه ملموس (ج. فيرشورين، 1985، 89). يمكننا إذن، تعريف الصمت كوحدة «شـبه مفصلية» Semi-articulée: فعلى الرغم من أن قيمته غير ثابتة، لكنه يعتمد بشكل أساس على السـياق؛ فهو يقوم بدور بنيوي، لأنه يتيح لنفسه بالتكرار (على الأقل) والتركيب. فالصمت اللغوي بوصفه وحدة «شبه مفصلية»، عنصر من عناصر التواصل الشفاهي يمكن أن يضطلع في إطاره بسلسلة كاملة من الوظائف. وبالمثل؛ بما أن اسـتخدامه ليس آليا، ولا حرّا، فإن تفسـيره يتطلب مقدرة تواصلية Compétence communicative.

ثانيا- الصمت كحالة والصمت كفعل

نَصـف الصمت على أنه فعـل [عمل] منذ اللحظة التي يتصـور فيها أن إنتاجه يحكمه قصد Intention[1]. ولذلك، فـإن الصمت قد يكون من ناحية غير لغوي أو لغـوي، ومن ناحية أخرى، ينتج عن قصد بطريقة ما وعن غير قصد بطريقة أخرى.

(1) فيما يتعلّق بالصّلة المفاهيمية بين الفعل (Action) والقصد (Intention)، فإنّ دافيدسون Davidson (1993) هـو الأكثر حضورا. وغنيّ عن البيان أنّ الطّابع المتعمّد للسّـلوك يجب أن يكون دائما من حيث المبدأ، موضوعا لفرضية من جانب الشّـخص الّذي يفسّر هذا السّلوك. ومع ذلك، وبوجود استثناءات نادرة (Rarissimes)، لا يجد الأشـخاص الطّبيعيون أية صعوبة في التّعيين اللّغوي للوقائع (Les faits) والحركات (Les gestes) النّاجمة عن النّية [القصد]، حتّى عندما يصعب تحديد محتواها.

فعلى سبيل المثال، إذا امتنعتُ عن العودة إلى الفراش حتى لا أحدِث صوتاً من شأنه إيقاظ شخص ينام بجانبي، فإنني هنا أتعمّد إنتاج صمت غير لغوي.

وبما أن الصمت غير اللغوي ليس جزءا من هذه الدراسة، فإننا سننتقل إلى الصمت اللغوي، الذي يولد فيما يتعلق بالكلام، أي كعدم تحقيق أو حذف لفعل من أفعال اللغة يتوقعه المخاطَب. ومن وجهة نظر سيميائية، فإن حالة الرجل الصامت لا يمكن أن تكون إلا دليلا أو مؤشّرا Indice يحمل دلالة طبيعية Signification naturelle، بالمعنى الذي أورده بول غرايس (Paul Grice, 1957). إن الصمت اللغوي غير القصدي يعني ضمنيا استحالة التعبير عن الذات التي تعود عادة إلى مزاج المرء (المتكلم هو ضمني بطبيعته)، وإلى عواطفه (الخوف، الألم، الغضب...)، وإلى عدم ثقته بنفسه (لا يجرؤ على الكلام)، وإلى حقيقة أنه لا يعرف ماذا يقول، أو إلى الكلام المفرط من قبل الآخرين. كما أنه بوسعنا أن نتحدث عن صمت لغوي غير مقصود في حال ترك أحد المتكلمين مخاطَبه بدون صوت حين يقول شيئاً محرجاً:

(1) أ. أعتقد أنّه من الأفضل أن لا يرى بعضنا البعض بعد الآن.

ب. [صمت طويل] هل هذا صحيح؟

يمكن تفسير الصمت غير القصدي لـ (ب) على أنه مؤشّر على عاطفته القوية، وأيضا على عدم التصديق (هذا فيما يتعلّق بالمعلومات الواردة)، لأن كِليهما منعه من إنتاج رد فعل شفاهي فوري. هذا الافتقار إلى ردّة الفعل [الاستجابة]، الذي يتمظهر في شكل صمت غير قصدي، يوفّر الكثير من المعلومات ذات الصلة، ليس عن محتوى رسالة مفترضة، بل عن طابع الصمت وعن حالته العاطفية أو الوجدانية. وعلى العكس من ذلك، فإن أي سلوك [تصرف] لفظي/ شفاهي ينتج عنه صمت قصدي – أي فعل صمت – يجب أن يعتبر علامة تحمل معنى «غير طبيعي» حسب المصطلحات الغرايسية. فعلى سبيل المثال، إذا قرّر المخاطَب عدم الرد شفاهياً – على

سؤال طُرح من قبل المتكلم – فإننا في هذه الحالة نقوم بصمت لغوي مقصود:

(2) أ. أخبرني الحقيقة، ماذا حدث؟

ب. [صمت]

أ. أنت دائماً تحميها.

ب. [صمت]

هذه المرة، يتم اختيار الصّمت كوسيلة للتعبير والتواصل، وهو بذلك يمثل فعلاً حقيقياً. وفي هذه النقطة، ننضمّ إلى د. كورزون (D. Kurzon, 1997, 25):

«عندما طُرح السؤال، تم منح المحاوَر تحفيزاً شفاهياً، ولكن مع الاحتفاظ بالحق في الاختيار بين الكلام والصمت كإجابة. هذا الاختيار ينتج معنى، من ثم الصمت له معنى. وإذا كان الأمر كذلك – وأعتقد أن هذا الافتراض مقبول عموماً – فعلينا أن نتأكد أولا مما إذا كان الصمت يعتبر فعلا، وما إذا كان معناه يمكن أن يُستمد من خطاب معادِل للنهج الذي يتبعه سورل [...] وإذا كان الفعل هو النشاط المقصود من جانب فرد ما، فإن قرار المخاطَب بالتزام الصمت هو هذا الفعل. وبما أن فعل الصمت وقع كبديل لفعل الكلام، فإنه يمكننا القول إن هذا الصمت هو أيضا فعل لغوي. وبطبيعة الحال، ليست كل الأفعال مقصودة [...] يمكن للمرء أن يصمت دون أن ينويَ ذلك».

بيد أننا، وخلافا لكورزون، لن نسمّي «الفعل» سلوكا غير قصدي.

بوجه عام، سوف نعتبر أن فعل الصمت قد يتخذ شكل «فعل صمت» Acte de silence (كما في المثال السابق)، وإما نشاط يتألّف من مجموعة أفعال (متطابقة

أو متباينــة) مرفقة بموقف (راجع فون رايت Von Wright، 1963)[1]. يســتخدم أ. جاورســكي (A. Jaworski, 1993, 78) مصطلح «النشــاط» بمعنــاه العام، الذي يغطي الأفعال والأنشطة بمعناها الدقيق:

الصمت نشاط. فالصمت الذي يحدُث يخضع للتأويل بنفس الطريقة التي تخضع لها حالات أخرى مــن عمليات الاتصال اللغوي تبعا لمبــدأ الملاءمة [الصّلة]. يتم تصنيــف العنصر اللغوي على أنه مثال على الصمــت عندما يحدث الحد الأدنى من التباين مع الفعل الرســمي من عدم التكلّم. ويندرج ضمن هذه الفئة الآثار المترتبة على ذلك، والتكرار المتمايز (غير الشــكلي)، والامتناع عن الكلام، وأفعال عدم قول شيء ما.

ومن جانبنا، نعتبر أن الأفعال التي تشكل نشاطاً من الأنشطة يمكن وصفها بأنها وحدات صغرى Micro-unités؛ ولكن المعنــى الذي يفترضه لم يعد يتم الحصول عليه بإضافة بســيطة، حيث إن النشــاط يصبح بالنســبة إليه، وحــدة كلية/ كبرى Macro-unité. لنتأمل هنا مثال الشــخص الذي كلما سنحت له الفرصة للتّدخل، يختار ويقرّر الامتناع:

(3) خلال الاجتماع، يلتزم الشــخص -الذي يعرفه جميع المشاركين بأنه شخص منفتح يعبّر عن آرائه بشكل إرادي- الصمت في كثير من الأحيان. الآخرون قلقون قليلا بشأن هذا الموضوع، لكن لا أســئلة تُطرح. وفي النهاية، عندما خرج الجميع، وأخذ كل واحد منهم سبيله، سأله أحد المشاركين: «وأنت لماذا لم تقل أي شيء أثناء الاجتماع؟ لقد فاجأتنا، لأن حججكم -في كثير من الأحيان- هي التي تحفّز [تحرّك]

(1) بطبيعة الحال، قد يكون من الصّعب التّمييز بين نشــاط (مقصود) وحالــة (غير مقصودة): فإذا قام شــخص ما بإلقاء أصابع الاتهام على الطّاولة، فمن الممكن أن يكون هذا النشــاط/ الفعل حالة (تعطي مؤشّرا) أو نشاطا (ينتج علامة).

مثل هذه النّقاشات. في الواقع، اليوم كانت النّقاشات جد متوسطة». فأجابه الآخر قائلا: «بالفعل، متوسطة جدا، في الواقع، كان صمتي هذه المرة عبارة عن طريقة للتدخّل».

هذا النشاط [الموقف] الذي هو الصمت، من الممكن أن يؤثّر على المشاركين في المناقشة لأنه ينطوي على هذا النحو على معنى.

إن فعل الصمت في رأينا، يشكّل امتناعاً. من ثم، فإننا نضم موقفنا إلى موقف فون رايت (Von Wright, 1963) وإلى ب. فيرمازن (B. Vermazen 1985، 93– 104) اللذان هما على عكس نيوبرج (M. Neuberg, 1993)[1]. ويعتبر الامتناع فعلا أو نشاطا في حد ذاته، أي الاعتراف بوجود إجراءات سلبية. ولتجنب أي سوء فهم، فإنه من الضروري التمييز بين استخدامين للمحور الإيجابي – السلبي: على المستوى المادي Au niveau matériel (تنفيذ القرار Exécution d'une décision وعلى المستوى الأخلاقي Au niveau éthique حكم الفعل Jugement de l'acte). وإذا لم يكن الاغتيال بمثابة فعل إيجابي من وجهة نظر أخلاقية، فإن الحقيقة تظل هي أن الاغتيال نُفّذ بالفعل وأن الآثار قائمة (ودائمة) بالتأكيد، ومن وجهة نظر إدراكية، إن إنجاز الامتناع أو الإغفال المتعمّد – ونحن لا نصنف الإغفال غير الإرادي على أنه فعل – قد يبدو وكأنه اللّافعل Non–action أكثر منه فعلا حقيقيا. بيد أن هذا التشابه الواضح يخفف إلى حد كبير، بل يبدَّد، وإذ يأخذ في الاعتبار السياق، ومعرفة المؤوّل للشخص، والقدرات التفسيرية (القائمة على المعرفة، والخبرة/ التجربة)

(1) يرى م. نيوبرج (1993، 13) أن أي عمل يحدث بمجرّد أن يقوم الشخّص المعني (الشخص المستقبلي) بتعديل حالته الرّاهنة عن قصد أو عن غير قصد (نيوبرج يعترف –على عكسنا– بوجود أفعال غير متعمّدة/ غير مقصودة). فبالنّسبة إليه، قد يختار الشخص عدم التصرّف إذا كان دافعه غير كاف، أو إذا كانت هنا قيمة أخرى تفوق القيمة التي يعزوها إلى موضوع الفعل. بيد أنّ الشخص، باختياره لفعل الإغفال أو الامتناع، فهو لا يغيّر من حالته الآنية، ومن ثمّ، لا يمكن اعتبار اختياره فعلاً/ عملاً.

لذلك المؤوّل. فضلا عن ذلك، فإن الامتنـــاع والإغفال المتعمّد، الذي يعني تنفيذه ضمنيا اتخاذ القرار (ومن ثم اتخاذ موقف)، ســـوف يفـــسَّر في وقت لاحق، بحيث؛ يمكن أن يُعزى إليهم معنى، في الوقت ذاته الذي يُعهد فيه إلى شـــخصهم بمسؤولية معينة، وهي بذلك إجراءات فعلية لها آثار فعلية أيضا. ومن ثم، يكون الامتناع فعل يؤخذ في الاعتبار. في الانتخابات الرئاســـية في فرنسا سنة 2002، عدد الذين امتنعوا عـــن التصويت في الجولة الأولى غيّر المســـار ليس فقط في فعـــل الانتخاب، ولكن بمعنى أدق في التاريخ الفرنسي، من خلال إحداث توازن جديد بين اليسار واليمين، ومن خلال أيضا تبني منهج التعايش، ومـــا إلى ذلك. في حين امتنع بعض الناخبين Électeurs عن التصويت بالنسيان، أو عن طريق اللامبالاة، أو لأنهم كانوا ينتظرون الجولـــة الثانية[1]، قال العديد منهم أنهم فعلوا ذلك احتجاجا على الخيار الذي فرض عليهم، ونتيجة أيضا لعدم الرضا عن عمل اليسار. لذلك يمكن القول إن الشخص يقـــوم بامتناع أو إغفال متعمّد بعد أن يقرر أن بعض الإجراءات الايجابية ســـتكون ضارّة بالقيم التي يعلق عليها. فهو يقرر منذ اللحظة التي يستطيع فيها أن يختار؛ وإذا اختار، فإنه يواجه خيار الامتناع عـــن التصويت أو الإغفال، فذلك لأنه اختار هذا الفعل/ العمل باعتباره فعله. ويرِد الوصف للفرق بين الامتناع المتعمد عن التصويت والإغفال المتعمد من منظور فكري. دعونا نفترض أن شخصا ما يقوم بفعل معين، ومن ثم، يرســـل حافزا إلى شـــخص آخر يقوم من جانبه، بتقييم سُبل اتباعه ويختار الامتناع عن التصويت كاســـتجابة لهذا الحافز. عندئـــذ، يمكن تعريف الامتناع عن التصويت على أنه فعل يشير بنمطه المحدّد والمميّز – بل وحتى بالتمرد والاستفزاز في كثير من الأحيان – إلى المصدر بكلّ محتوى التحفيز الذي يتلقاه، ويحمله ببعض القيم

(1) إنّ ســـلوك هؤلاء النّاخبين يشـــكّل مؤشرّا بالتّعبير الغرايسي يحمل في طيّاتـــه دلالة «طبيعية»، الّذي يســـتطيع المحلّلـــون أن يتعهّدوا بشرحه؛ غير إنّه لا يمكن أن يشـــكّل علامة: هـــؤلاء الّذين امتنعوا عن التّصويت لم يعنو أي شيء «ليس طبيعيا».

الأخرى التي ينتجها الشـــخص الذي امتنع عـــن التصويت ومن ناحية أخرى، فإن الإغفال المتعمد من شأنه أن يكون بمثابة فعل يعمل بموجبه الشخص كحافز بهدف الحفاظ على محتوى معين لنفســـه، من أجل الاســـتفادة منه (سواء لنفسه أم لشخص آخر). وقد يكون هذا المحتوى أساســـيا (جوهريا) أو مكمّـــلا (تابعا)؛ وقد يكون مرجعه داخل الدعوى – إذا كان يتعلق بالشـــخص المتـــورّط في الدعوى أو خارج الدعوى – إذا كان يتعلق بأشخاص أو بحالات أخرى.

ثالثا- نظرية الأفعال اللغوية وأفعال الصمت

وكما نعلم، فقد طالب ج. ر. سورل في العديد من المناسبات باتباع مقاربة تُخضع نظريـــة اللغة لنظرية أكثر عمومية/ شـــمولية ألا وهي نظرية الفعل (راجع ســـورل 1972، 53)، ويرجع هذا إلى أن المعايير التي نستخدمها لتحديد النوايا اللغوية ليست لغوية حصراً.

كان أوســـتن (1970) هـــو الذي أكـــدّ في محاضراته التي ألقاهـــا ويليام جيمس (وأعلن عنها في عام 1955) أن «القول هو الفعل/ العمل»، ومن ثم، وضع أســـس نظرية الأفعال اللغوية. ومن أجل إعادة بناء مقاربته، نســـتطيع أن نتناول مرة أخرى هذا التمييـــز، الذي قدمه م. نيوبرج (1993، 19–13) بين الفعل المنتج، حيث يدرك الشـــخص نفســـه الغاية المرجوّة، والفعل الحاســـم، حيث يؤدي إلى إطلاق عملية ســـببية تؤدي بدورها إلى تحقيق هذه الغاية. ولذلك، سنقول إن الاتصال الشفاهي يحدث عندما يتم القيام بفعل منتج أو محدد يجســـد ملفوظا في سلسلة من الفونيمات (Phonèmes) أو الغرافيمات *[1](Graphèmes). لكن الاتصال الشفاهي لا يقتصر على الفعل الصـــوتي (Phonétique) أو البياني/ التخطيطـــي (Graphique)؛ بحيث

(1) * إذا كان (الفونيم) هو الصّوت «O» مثلا، فإنّ (الغرفيم) هو مجموعة من الأصوات المتولّدة من نفس (الفونيم) «O» مثل: «O»، «Au»، «Eau»...إلخ. (المترجم).

عندما نتكلم أو نكتب، نقوم في الوقت ذاته بعدة أفعال لغوية. وبعد محاولاته المتكررة العثــور على نوع من التعارض بين الوصف Constatif والأداء Performatif، اقترح أوستن تمييزا جوهريا بين ثلاثة أفعال لغوية: الفعل القولي Acte Locutoire، والفعل الإنجازي Acte Illocutoire، والفعل التأثيري Acte Perlocutoire.

يتألــف فعل القول من إصدار ملفوظ يتضمن معنــى؛ فهو يعبّر عن حالة ذهنية (اعتقاد أو رغبة أو نيّة) لها بالضرورة محتوى قضوي. وهو يتشــكل من فعل صوتي (Phonétique) أو تخطيطــي (Graphique)، وفعــل انتباهــي (Phatique)، وفعل إبلاغي/ دلالي (Rhétique). ويتعلق الفعل الصــوتي بإنتاج المادة الصوتية Sonore التي يتكون منها الملفــوظ، الذي لا يكفي لإنتاج معنى/ دلالــة (حرفية). من ثم، يمكن للمرء أثناء ممارســة الكتابة أن يتلفظ سلســلة من الكلمات دون القيام بفعل القول. ويتألف الفعل التركيبي –فعل إنتاج تركيب– من إنتاج الدلالة اللغوية، أي إنتاج كلمات تشكِّل جزءا من مجموع المفردات وتنظَّم وفقا لقواعد اللغة المستخدمة. أما بالنسبة إلى الفعل الدلالي/ الإبلاغي –فعل إنتاج مسند– يسند المتكلم إلى الملفوظ إحالة ومعنى (أي يسند المحتوى القضوي إلى التركيب)[1].

«تشكل» بدوره من خلال فعل القول، ويتم تنفيذ الفعل الإنجازي بنجاح عندما ينجح المتكلم في منح/ إعطاء محاوره سببا عامّا للاعتقاد أو التصرف، أو منح لنفسه سببا علنيا للتصرف (راجع: م. كيســين M. Kissine، 2007، 2008؛ م. دومينيسي M. Dominicy، 2009). ومن ثم، فإن الطبيعة العرفية/ التقليدية للأفعال الإنجازية

(1) من جانبه، قام ســورل باقتراح أربعة أفعال لغوية: فعل التلفّظ (Acte d'énonciation) –وهو الفعل الّــذي يقابل الفعل الصّوتي–، والفعل القضــوي (Acte propositionnel)–وهــو الفعل الّذي يقابل الأفعال التّركيبيــة والدّلالية/ الإبلاغية–، والفعل الإنجــازي (Acte illocutoire)، والفعل التّأثيري (Acte perlocutoire)(ينظر: ســورل 1972، 62–61)؛ ومن ثمّ، فسورل يعتبر الفعل القولي/ الصّوتي فعل غير ضروري.

ترتبط بوجود ما سمّاه سورل بـ«القواعد التأسيسية» Règles constitutives (راجع: سورل، 1972، 74):

سـوف أحاول أن أوضّح من خلال التعليق على الصيغتين اللتين استخدمتهما في وصف القواعد التأسيسية: «إن إنشـاء القواعد التّأسيسية يولّد – إن جاز التعبير – إمكانية ظهور أشـكال جديدة من السلوك»، و«القواعد التأسيسية غالبا ما تكون في هيئة X تعود إلى Y في الحالة S».

إلى جانب الفعل الإنجازي المباشر، قدّم كل من أوسـتن وسورل مفهوم الفعل الإنجازي غير المباشر. فبينما يرتكز الأول على فعل القول الذي يحدده المعنى الحرفي (وبالتالي، بحكم طبيعة الفعل الفرعي التركيبي والفعل الفرعي الدلالي)، فإن الثاني يؤسِّس فجوة بين هذا المعنى الحرفي والمعنى الحقيقي للملفوظ، الذي يعتمد إلى حد كبير على سياق التلفظ[1].

وأخيراً، نؤدي فعلا تأثيريا «بقول شيء ما» (أوسـتن 1970، 96). وهذا الفعل لا يرتبط مباشرة بالملفوظ، بل بمعناه: فهـو يتطرق إلى القصد والغرض، وهو بالفعل موجـود في تخطيط الخطـاب. ورغم أن المتكلم لا بد وأن يكـون لديه قصد (قصد التّخاطب) بـأن يدرك المتلقي قصده الإنجـازي (الإخبار/ الإعلام)، إلا أنه لا بد وأن لا يكون لديه بالضرورة القصد في أن يتعرف المتلقي على قصده التأثيري. وهذا

(1) ونحن نستعير مفهوم الارتّكاز من «كاترين كيربرات أوريكشيوني» (1986): إنّ الارتّكاز يمكن أن يكون مباشرا، إذا ما تمّ نقل المحتوى عن طريق العلامات الموجودة في الشّكل السّطحي للملفوظ. وغير المباشر، إذا لم يك للمحتوى معنى خاص به. وتستنتج ك. ك. أوريكشيوني وجود قوّة إنجازية «واضحة/ ظاهـرة» (Patente) (ومرتكزة في دلالة صريحة)، وقوّة إنجازيـة «كامنة/ مضمرة» (Latente) (الّتي لا تتوفّـر أو لا تملك ارتّكازا مباشراً والّذي ليس من الـضّرورة أن يكون واضحا؛ ولكن يمكن تحقيقها في التّأويل). وبالإضافـة إلى ذلك، قد يكون للفعل اللّغوي عدّة قوى إنجازيـة، إحداها مباشرة، وأخرى غير مباشرة. ولكن في بعض الحالات، يحلّ الفعل الإنجازي غير المباشر محلّ الفعل المباشر. وتسـمّي ك. أوريكشيوني هذا النّوع من الأفعال غير المباشرة «المجاز الإنجازي» (Trope illocutoire).

يعني أن الفعـــل التأثيري ليس بالضرورة فعل اتصـــال، والمعنى الذي يولده يمكن أن يكون طبيعيا بالمعنى الغرايسي، أو لأجل إعادة اســـتخدام المصطلحات التقليدية للسّـــيميائيات، التي يمكن أن تكـــون بمثابة مؤشّر/ دليـــل. وإضافة إلى ذلك، فإن التأثير المترتب عن بعض الأفعال التأثيرية من الممكن أن يتحقق بوسائل غير لغوية: بحيث؛ يمكن للمرء أن يخيف شخصا ما عن طريق تأكيد شيء له أو عن طريق رمي عنكبوت في عنقه.

وقد أكد العديد من اللغويين الذين تناولوا ما نســـمّيه «فعل الصمت» وشدّدوا عـــلى طبيعته القصديـــة. فبالنســـبة إلى ج. فرشـــويرن J. Verschueren, 1985, 73, (119)، فإنه يندرج ضمن «فئة دلالية داخل المخطط اللغوي» و «جانب من جوانب العمل اللغوي»؛ بينما يراه فان دين هيوفيل (Van den Heuvel, 1985, 67) أنه «فعل تلفظي غيابي» أو «عدم تنفيذ فعل التلفظ الذي يمكن أو ينبغي أن يحدُث داخل حالة معينة». وبشكل أكثر وضوحا، يتحدث سافيل–ترويكي Saville–Troike, 1985, (6) عن فعل اللغة:

يمكن أن يكون الصمت جزءً من الأفعال التخاطبية أحد الأشكال التي يتخذها الفعل اللغوي – الذي شـــغل العديد من الوظائف نفسها وملأ فواصل الخطاب – وينبغي النظر إليه جنبا إلى جنب مع إنتاج رموز الجملة كوحدة تشـــكيلية أساســـية للاتّصال اللغوي.

تقول روديكا ميهايلا (R. Mihailă, 1977, 417–418) عن فعل الامتناع:

من المشروع إدراج الصمت بين أفعال اللغة بقدر ما يعتبر فعلا من أفعال الامتناع [...] وعلى غرار الإجراء نفســـه، فإن الامتناع هو نتيجـــة موقف متعمّد/ مقصود، يكون الشـــخص مســـؤولا عنه. [...] ولا يصبح الصمت ذا صلة بالفعل إلا على النقيض من الحالات التي يفترض فيها مسبقا أن الفعل لغوي.

إذا كان الامتناع الذي شــكّله فعل الصمت هو في الواقع فعل لغوي، فإنه يتعين عليــه تحديد وضعه بدقة. ولنضعــه أولا فيما يتعلق بأفعال القــول وأفعال الإنجاز المباشرة، ثم نشرع في النظر في وضعه على المســتوى القولي والإنجازي غير المباشر، وكذلك على المستوى التأثيري.

1.3. فعل الصمت على المستويين القولي والإنجازي المباشر

ينبغي أولا التأكيد على أن الفعل اللغوي وفعل الصمت يكمّلان بعضهما البعض: ذلك أن إنتاج أحدهما يستبعد إنتاج الآخر في آن واحد (بشكل متزامن). وهناك فرق هام بين فعــل الصمت والفعل غير اللغوي (الإيــماءات Kinésique[1]، الفضاءات Proxémique[2]، إلى ما غير ذلك). الذي يمكن القيام به في نفس الوقت باعتباره من أفعال الكلام. بحيث؛ لا يمكننا أن نكون صامتين وفي نفس الوقت نتكلم[3].

1. على المســتوى الصّوتي (أو ما يعرف بــالرسم الخطي)، يمكن تسجيل أول اختلاف فيما يتعلق بفعل الكلام: بينما يشكل عرض الفونيمات والصمت بنيويا (من حروف وبياضات/ فراغات) عملا حقيقيا مثمرا (بالمعنى الوارد أعلاه)، فإن الجزء المادي المقابل لفعل الصمت ينشــأ من خلال الامتناع الــذي يمنع مثل هذا العمل

(1) يقصد بمصطلح « Kinésique »دراسة الإيماءات والتّقاليد المستخدمة كعلامات في التّواصل، سواء في حدّ ذاتها أم كعلامات مرافقة للّغة المنطوقة. (ينظر المعجم الفرنسي لاروس Larousse). (المترجم).

(2) * يراد بمصطلح « Proxémique » دراسة اســتخدام الفضاء من قبل الكائنات الحيّة في علاقاتها مع بعضها البعض، والبحث عن المعاني التي تتولّد عنها. (المرجع نفسه). (المترجم).

(3) إنّ فعل الصّمت، كما نتصــوّره، يختلف عن المضمرات «Sous-entendus» الّذي جاء به الافتراض السّابق [المســبق] (Présupposition) أو تعدّد الأصوات (Polyphonie) (ديكرو 1972، 1984). فإذا قلت: «لقد توقّف بيير Pierre عن الاحتيال» أو، خارج ســياقات معيّنة، «بيير Pierre ليس محتالاً»، فأنا أعني ضمناً أنّ بيير Pierre كان محتالا أو يمكن أن يكون محتالا. لكن، في هذه الحالة، يرتبط «غير المعلن» « Non-dit » بـ «قــولي» « Mon-dit » عن طريق الخصائص البنيوية للفعــل الانتباهي الناتج؛ وقد تمّ تسليط الضوء على هذه النّقطة في أعمال «كوليولي Culioli» (انظر: ميلنر Milner، 1973، 235-219).

المنتج/ المثمـــر. إن الجهاز الصوتي لا يعمل، فالهواء الذي يعمل كقناة بين المتخاطبين لا يتغير. وعلى العمـــوم، لا شيء يتغير مقارنة مع اللّافعـــل Non-action. فغياب الفعل الانتباهي (Acte phatique) يســـير بشـــكل طبيعي جنبا إلى جنب مع غياب الفعل الصوتي (Acte phonétique). ومن ثم، يصعب التمييز على المستوى الشكلي بين الصمت اللغوي المتعمد، وبين الصمت غير المتعمد أو الصمت غير اللغوي.

إن الغيـــاب لأي فعل صوتي (أو خطي) وانتباهي يعني أنه إذا كان فعل الصمت ينطوي -من خلال الجانب الخطابي، الذي نستطيع تعيينه بالمحتوى القضوي- على جانب فعل القول المباشر، فإن ذلك يعني أنه يصبح تعاقديا -بشـــكل كامل- تماماً. وقد وردت هذه الحالات في الأدب؛ فعلى ســـبيل المثال، يستشـــهد سافيل ترويكي (Saville Troike, 1985, 8-9) بمثال المجتمع الياباني، حيث عندما يطلب الخطيب يـــد فتاة في مقتبل العمر للزواج، فإن الفتاة يكون جوابها عن طريق التزامها الصمت الذي يعني الموافقة؛ (بينما يعني هذا الصمت في الإيغبو Igbo بشكل دقيق الرفض). لذا، فمن المسموح أن نعتقد، أن الفتاة اليابانية تقوم في هذه الحالة بفعل قولي (كونها تعبر عن نيتهـــا)، فضلا عن الفعل الإنجازي (أنها لا تلتـــزم). والمحتوى القضوي المشترك بين السؤال والجواب هو: «أن تعطي يدها له»؛ والجواب بالصمت سيكون له نفس وضع الوعد (ومن ثم التأكيد) مثل كلمة «نعم». هذا المثال يتناقض وتحليل ر. ميهايلا (1977، 419):

إن تعريف فعل الصمت كغياب للكلام (المنطوق)، ليس له صفة القوة الإنجازية ولا المحتوى القضوي. إن مدة الصمت يمكن أن تكون في بعض الأحيان دليلا [أو مؤشّرا] رسميا.

حقيقـــة أن الفتاة اليابانية تعبّر عن قبولها على نحو لا لبس فيه، من خلال الإجابة عن السؤال بصمت، يمكن وصفها من خلال استدعاء صيغة سورل السالفة الذكر

«ترجع X إلى Y في الحالة S (السياق C)» (سورل، 1972، 74؛ 1998، 48–45): يرجع «الصّمت» إلى «نعم» في حالة «طلب من فتاة الزواج في المجتمع الياباني». لنأخذ مثالا يكون أقرب منا، ولننظر في حالة مداولات الجمعيات التي تقدّم فيها المقترحات قصد الموافقة عليها تبعا للإجراء الآتي: يقرأ الرئيس أو الأمين كل اقتراح وارد في جدول الأعمال؛ وفي حالة غياب أي رد شفاهي في غضون فترة زمنية قصيرة جدا، يعتبر أن الاقتراح [الذي تلاه الرئيس أو الأمين] يوافق عليه الجميع، بحيث يختم الرّئيس خطابه في محضر الجلسة [أو الاجتماع]، بعبارة «تمّت الموافقة عليه بالإجماع». وفي عبارات سورل، سوف يقال إن «الصمت» بالنسبة إلى كل عضو من أعضاء الجمعية هو بمثابة تصويت بعبارة «نعم» في حالة «الإجراء الذي يؤدي إلى الموافقة أو عدم الموافقة على المقترحات المُدرجة في جدول الأعمال». ومما لا شكّ فيه أن عدد أفعال الصمت التعاقدية هذه قد انخفض، ولا ريب أن هذه الأفعال لا تمثل سوى جزء يسير من الصمت اللغوي. بيد أن، هذه الأمثلة تسمح لنا بصياغة فرضية مفادها أن فعل الصمت التعاقدي يشكل فعلا قوليا مباشرا – ذا محتوى قضوي مباشر – وله قوة إنجازية مباشرة.

2.3. فعل الصمت على المستويين القولي والإنجازي غير المباشر

يقبل بعض اللغويين الفكرة القائلة، بأن فعل الصمت غير التعاقدي يشكل فعلا قوليا غير مباشر ويتضمن قوة إنجازية غير مباشرة. إن جودة فعل الصمت وقوته الإنجازية –بالنسبة إلى ميهايلا (1977، 421)– تعتمد على الدلالة (المعنى) التي يستثمرها الصمت. إن الملاءمة الإنجازية هي نتيجة للملاءمة الدلالية.

وعلى نحو مماثل، يخبرنا سوبكوياك (W. Sobkowiak, 1997, 46)، عن الصمت غير التعاقدي قائلاً:

إنه يحتفظ بالقوة الإنجازية للكلام [...] من حيث إنه قادر تماما على تحقيق

الأفعال اللغوية الشائعة المتمثلة على سبيل المثال في: الاعتذار، والرّفض، والشّكوى، والسّؤال...إلخ.

ويشـــترك فعل الصمت غير التعاقدي في بعض ســـماته مع الســـمات الضمنية/ المضمرة (انظر: كيربرات أوريكشـــيوني، 1986؛ ديكرو، 1972، 1984)، بينما تختلف عنه في عناصر أخرى.

وعلى الرغم من أن محتوى هذا أو ذاك يفسر بفعل من أفعال الكلام، فإنه سيكون دائما تفسيرا تقريبيا إلى حد ما. وبخلاف هذا المحتوى، فإن القيم الّتي يمكن أن تنتقل بوســـاطة المضمر وفعل الصمت غير التعاقدي تنطوي على عبء ذاتي –عاطفي أو فكري– فضلا عن القيم الأسلوبية (البلاغية) الأكثر تلفظا (أو نطقا). ومن ثم، فإن القيم التي يمكن أن ينقلها كلاهما تشبه تلك التي ينقلها فعل الكلام، لكنها لا تختزل فيه.

إن فعل الصمت غـــير التعاقدي يختلف عن الفعل الضمني من خلال ترســـيخ أساليبه: فبخلاف الفعل الضمني، الذي له إرساء غير مباشر في الكلام أو في السياق، فإنه يواجهنا بحالة أكثر تعقيدا، مع إرساء غير مباشر في الموقف التخاطبي. وبناء على هذا التثبيت/ الإرســـاء غير المباشر، فإن، فعل الصمت غير التعاقدي يعارض فعل الصمت التعاقدي والتوقفات (الوظيفية أو البلاغية)على حد ســـواء. ويرتكز فعل الصمت التعاقدي مباشرة في غياب الكلام الذي يعادل «علامة صفر» حسب تعبير ف. دو سوســـير. أما بالنســـبة إلى توقفات (الوظيفية أو البلاغية)، فهي لا تُستخدم لإنتاج معنى مســـتقل، بل لتنظيم التبادل أو لتوصيل معنى لا شك أنه ذو طبيعة غير قضوية: فهي بذلك لا تستطيع أن تتمتع بأي «إرساء» مباشر أو غير مباشر.

يتعـــين علينا –في رأينـــا– تحليل فعل الصمت غـــير التقليدي باعتبـــاره امتناعا Abstention يؤدي إلى غياب نوع معين من فعل الكلام ذي القوة الإنجازية: فالقوة

الإنجازية المباشرة لفعل الصمت غير التعاقدي هي من ثم قوة «الإنكار الإنجازي» (راجع سورل وفاندرفكن، 1985). وبخصوص هذه النقطة، نختلف مع ر. ميهايلا (R. Mihaila, 1977, 420) التي تؤكد:

وحتى إذا أمكن استبدال الصمت بعدد كبير من الأفعال اللغوية، التي تتسم بأشكال مختلفة من القوة الإنجازية، فإنه لا يمكن للمرء الحديث عن قوة إنجازية سلبية. ونحن نميل إلى اعتبار الصمت، بصفة عامة، فعلا سلوكيا Acte de comportement.

وفي العديد من الحالات يفسر هذا الامتناع تفسيرا غير مباشر على أنه تصرّف/ فعل إنجازي (ومن ثم فعل قولي) إيجابي. ولنتأمل بعض الأمثلة:

(4) جدال يؤدي بزوجين إلى الانفصال:

أ. هل أنت غاضب مني؟

ب. [صمت]

أ. هل تعتقد حقا أنه لا يمكن إصلاحه؟

ب. [صمت]

أ. إذا كنت تريدني أن أغادر، أخبرني؟

ب. نعم.

المتكلم (ب) في كلتا المناسبتين لا يقول أي شيء: ذلك أن هذا الامتناع المتكرر يرقى إلى مرتبة الرفض الإنجازي لتأكيد أو نفي المحتوى القضوي للأسئلة المطروحة. ومن حيث المبدأ، فإن الإنكار/ الرفض سوف ينطبق بدلا من ذلك على الأفعال الإنجازية التي من شأنها الإساءة إلى المحاوَر أو جرحه؛ فالوضع (مستوى

التوقعات) والبنية التخاطبية (تصنيف الأسئلة على سبيل المثال)، يؤيدان هذه الآلية بشـــكل تلقائي. ذلك، أن الامتناع هنا يرقى إلى رفض الرفض Refus de nier؛ وهو يتبع في ذلك فعل التأكيد الإنجازي غـــير المباشر، يتقبله المتكلم (ب) دون صعوبة، لأنه يرِد كما لو أن المتكلم (أ) قال بشكل صريح «نعم».

(5) فتاة تتحدث إلى والدها قائلة:

أ. أريد في هذا الصيف، أن أذهب مع ناتالي Nathalie إلى اسبانيا لمدة ثلاثة أسابيع. سبق وأن تحدثنا كثيرا عن هذا الأمر وسألَتني إذا ما كنت ستوافق.

ب. [صمت]

أ. شكرا، شكرا، أعرف أنك تفهمني.

ب. [يبتســـم] لم يكُن لدي أي شيء ضد مشـــاريعك، حتّى تجعلني أفكر خلاف ذلك.

المتكلم (ب)، نفسه يعترف بأنه في موقع قوة، لا يوافق بالضرورة على ذلك لكنه يظهر بنوع من المرونة، معتبرا أنه من الحكمة، لسبب أو لآخر، عدم معارضة رغبات ونوايا ابنته. ونظرا لآليات التفاعل التي تعمل بوجه تلقائي Par défaut، كما حصل في المثال السابق، فإنّ الامتناع هنا يعد رفضا إنجازيا كونه لا يوافق المحتوى القضوي للسؤال غير المباشر؛ وهذا يؤدي إلى فعل إنجازي غير مباشر للموافقة.

(6) محادثة بين زوج وزوجه:

أ. ســـألتني اليوم إذا ما كان يمكنها قضاء عطلتها مع ناتالي Nathalie في اسبانيا. ليس لدي أي شيء ضدها، هل توافق على أن ندعها تذهب؟

ب. [صمت]

أ. أعتقد أنه بإمكانك إخبارها أننا تحدثنا عن الأمر وهذا جيد.

يرى (أ) في امتناع (ب) موافقة إرادية/ طوعية أو إجبارية (كما يدل على ذلك المثل القائـــل: «الصمت يعني الموافقة» الذائع على نطاق واســـع في المجتمعات الغربية). وبعبارة أخرى، إن (ب) في نظر (أ) ليس متكلما في موقع قوة، بل هو متســـاوٍ أو أقل منه قليلا لا يستطيع أن يعارض. وفي هذه الحالة/ الفرضية، يعتبر الامتناع/ الرفض بمثابة موافقـــة، أي الرفض الإنجازي للإدلاء بالرأي على نحو مخالف لاقتراح (أ)؛ ويترتب عن ذلـــك في ذهن (أ)، فعل إنجازي غير مبـــاشر دالٌّ على الموافقة. بطبيعة الحال، ربما كان (ب) يقصد بصمته شـــيئا آخـــر؛ لكن في غياب احتجاج صريح من جانبه، يتم التصديق أو الموافقة بصورة تفاعلية على التأويل الذي تبناه (أ).

(7) محادثة بين زوج سكّير وزوجه:

أ. مرة أخرى تعود إلى المنزل متأخرا وثمِلا ميتا. أنت متعِب.

ب. اسمع... يا، اسمع... حقا أنا... آسف... أتعلم كم الساعة الآن؟

1. [صمت]

2. لا؟ لا تعرف؟ حسناً. أنا سأتأكد...

1. بالفعل أنت متعِب.

قد يلجأ المتكلم (أ) الأعلى درجة أو المتساوي أو الأقل درجة، إلى الصمت بدافع الاحتقـــار Mépris، أو المجاملة Politesse، أو الخوف. وعلى كل حال، فإن الامتناع ورد هنا بمعنى الرفض الإنجازي قصد الإجابة عن الســـؤال المطروح. وإذا ما اتخذ المتكلم (أ) موقعا للقوة، فإنه يجوز له القيام بفعل إنجازي غير مباشر يعاتب بموجبه (ب) على العودة في ذلك الوقت المتأخر. وفي هذه الحالة، فإن الجواب نفســـه الذي رفض (أ) تقديمه هو الذي يمنح المحتوى القضوي للعتاب [أو التوبيخ] الذي صيغ

بصورة غير مباشرة.

(8) محادثة بين أم وابنها:

أ. اذهب للبحث عن والدك في المحطة!

ب. لكن، ليس لدي الوقت للذهاب الآن!

أ. [تُحدّق في صمت دون أي تعبير]

ب. تحت أمرك سيدتي.

المتكلم (أ) في موقع قوة. إن الامتناع هنا يرقى إلى مصاف الرفض الإنجازي قصد سحب الأمر الصادر من قبل (ومن ثم إنكار/ رفض الفعل الذي قد يتألف من إنكار هذا الفعل)؛ ويترتب على إثر ذلك أمر معزّز غير مباشر.

(9) محادثة بين صديقين:

أ. لدي الكثير من المشاكل مع صوفي Sophie.

ب. [صمت]

أ. هي لا تفهمني مطلقا، نتجادل في غالب الأحيان، كما أنها تهرب من البيت. لا أعرف ماذا أصنع.

ب. نعم، فهمت. إذا كان بوسعي مساعدتك... [صمت]

إن صمت المتكلم (ب)، الذي لا يتواجد بالضرورة في موقف قوة؛ من الممكن تأويله من قبل المتحدّث إليه واعتباره بمثابة سؤال أو دعوة إلى القول. والامتناع بدوره هنا يرقى إلى الرفض الإنجازي للإعراب عن رأي شخصي بشأن هذا الموضوع؛ وهو ما يترتب عنه فعل غير مباشر يفيد الاستجواب أو الوعظ [أو النصح].

ومن إيجابيات الاعتراف بالعمل الإنجازي للصمت هو أننا نستطيع الآن منح

معنـــى للفكرة البديهية القائلة بأن هذا الصمت لا يتســـم فقط بخاصية المدة الزمنية وحسب، وإنما يتميز أيضا بشـــدته Intensité أو قوته Sa Force. والواقع أن من بين العناصر التي تتألف منها القوة الإنجازية «درجة القوة» Degré de puissance التي يُعبّر بها المتكلم عن حالة ذهنية معينة. فعلى سبيل المثال، المتكلم الذي يعلن عن شيء مـــا، يعبّر عن اعتقاده في شيء ما بطريقة أقوى مما إذا كان يؤكد، أو أكثر من ذلك، مما إذا كان يقترح. وكما يتبين لنا، فإنه لا يمكن تقييم «درجة القوة»، فهي تشـــير إلى علم النفس النوعي والذاتي، الذي يعزوه المتكلم إلى نفسه من خلال سلوكه اللفظي (على الأقل في التأويل الذي يتبناه المحاوِر لهذا الســـلوك). وعلى نفس المِنوال، فإن الفعل غير المباشر المســـتمد من فعل الصمت الإنجازي ســـوف يمنح «درجة القوة» التي ســـوف يتمّ اعتمادها في جملة أمور، على مدى مدة الصمت، بل وأيضا على المؤشرات الأخرى التي يوفرها السياق (إيماءات المتكلم، نظراته، إلخ).

3.3. فعل الصمت على المستوى التأثيري

إذا كان لأي فعـــل من أفعال الصمت غير التعاقـــدي بُعدٌ إنجازي، فإن ذلك قد يُسفِر عنه أيضا نتائج وآثار تأثيرية. وقد أعلن عن هذا الطرح صراحة سافيل ترويك (Saville Troike, 1985, 6):

وكما هو الحال بالنسبة إلى الكلام، فإن الأفعال التخاطبية الصامتة قد يتم تحليلها على أنها ذات قوة إنجازية وآثار تأثيرية (انظر: أوســـتن، 1962)، ومن الواضح هنا، أننا لا نستطيع استخدام «القول» Locution بمعناه المعتاد.

وعند بانفي (E. Banfi, 1999, 37):

يمكن استخدام الصمت للتعبير عن الأفعال اللغوية الدقيقة، من قبيل: السؤال، والوعد، والرفض، وإعطاء الأوامر، والإهانة. وتتجلى في أشكال الصمت المختلفة،

وبطرق متباينة، جوانب رئيسة من قوتها الإنجازية والتأثيرية [...].

بيــد أن الأمر يحتاج إلى توضيح. في جميع الحالات التــي رأيناها إلى الآن، يرتبط المحتــوى القضوي غير المباشر ارتباطا وثيقــا، إن لم يكن مماثلا للمحتوى القضوي لفعل الرفض. دعونا ننظر على سبيل المثال، المثالين (4) و (7)، كما ناقشناهما أعلاه. في المثال (4)، يرفض (ب) بشكل إنجازي إنكار المحتوى القضوي «أنا مستاء منك كثيرا»، وهي وســيلة لتأكيد نفس المحتوى بوجه غير مباشر. وفي المثال (7)، يرفض (أ) الإجابة عن الســؤال المتعلق بالوقت الذي يحين الدخول فيه إلى البيت، وهو ما يشكّل وســيلة لتوجيه اللوم إلى (أ) بســبب عودته في ذلك الوقت المتأخر. غير أن اســترجاع هذا المحتوى غير المباشر في بعض عمليات التواصل أمر مستحيل، ومن ثم، فإن التأويل لا بد وأن يستند في الأساس إلى الآثار الناتجة عن الفعل الإنجازي:

(10) أ. إذن، ما رأيك في خطيبتي؟

ب. [صمت]

أ. أخبرني، بصراحة.

ب. [استراحة] اسمع، أنا لا أعرفها جيدا. [صمت]

أ. حسنا، حسنا. فهمت.

بالنسبة إلى الصمت الأول، ينجز المتكلم (ب) الفعل الإنجازي المتمثل في رفض الإجابة[1]. بحيث، لا يمكننا معرفة ســبب هذا الرفض، بيــد أنه يمكننا أن نخمن أن هناك ســببا ما. المؤكد أن مســتخدِم هذا النوع من الأفعال يرغب في عدم تحمل

(1) مــن منظور «غرايس Grice» (غرايــس، 1975)، يتبيّن لنا أنّ المتكلّــم (ب) لم يحترم «مبدأ التّعاون» (Principe de coopération)، أو أنّــه لم يعتمد – وفقا لمصطلحات ســورل – على مبدأ «حســن النّية» (Bonne volonté) الــذي لا غنى عنــه لنجاح كلّ تخاطب. وقد تمّ التّعامل مع هذه المســألة بمزيد من التّفصيل في أطروحتنا (2005).

مسـؤولية كان يفترضها بموجب فعل من الأفعال اللغويـة. المؤكد أيضا، أن هذا الامتناع/ الرفض مهم في ذاتـه، كونه على الرغم من أن المتكلم يرفض المسـؤولية المرتبطة بالكلام، فإنه يزوّد محاوِره بجملة معلومات. وبتدقيق أكثر، عندما يتم قصدا اختيار فعل صمت غير تعاقدي، فإنه يقدِّم معلومات أكثر ممّا كان يمكن تقديمه من خلال إجابة بسـيطة من نوع «بالنسـبة إلَيّ تبدو لطيفة جدا». والحال أنه عن طريق الصمت يتواصل مـع مخاطَبه: (I) هذا الموضوع محرج بالنسـبة إلَيّ؛ (II) لا أجدها متعاطفة لدرجة أنني أسـتطيع اللجـوء إلى جملة مهذبة ومحايـدة؛ (III) أفضل ألا أعطيك إجابـة، لأنها قد تؤذيك، ومن ثم تضر بعلاقاتنـا الطيبة؛ (IV) يمكنك أن تسـتنتج من خلال صمتي بماذا أفكر. إنّ نقْل هذه المعلومات المتباينة هي عبارة عن مجموعة من الآثار (التأثيرية) المترتبة عن فعل الامتناع الذي أنتجه المتكلم.

أما بالنسـبة إلى الصمت الثـاني للمتكلم (ب) فهو عبارة عـن توقف إدراكي/ عرفاني، حيث يتسـاءل المتكلم عن كيفية الأداء. وأخيرا، اختار فعلا لغويا بدحض حاجته إلى اسـتجابة مباشرة ودقيقة، كما يُصرّ على المحافظة (المشـتركة) على علاقة ودّية وعـلى أقصى قدر من الإخلاص. بينما يكون الصمـت الأخير للمتكلم (ب) بمثابة رفض قول المزيد مما يؤدي إلى دعوة تأثيرية قصد وقف تبادل الكلام حول هذا الموضوع الخطير. ومن المؤكد أن رغبة المحاوَر في معرفة المزيد عن الموضوع لا زالت متيقّظة ومتحمّسة، لأنه لا يعرف ما الدافع/ الباعث الحقيقي لتحفظ المخاطَب. كما أنه يمكنه القيام بعدة فرضيات، التي سـوف تسير بطريقة أو بأخرى، لكن ما تمكن من استنتاجه هو بكل تأكيد أن (ب) لديه رأي سلبي إلى حد ما عن خطيبته.

ونرى في هذا النوع من الأمثلـة، أن النتائج والآثار المترتبة عن الفعل الإنجازي آثارا ثابتة، وأن فعل القول والفعل الإنجازي غير المباشر لا زالا مصدر إشكالات. فمن ناحية، لم يحدث التعبير المعتاد، ومن ناحيـة أخرى، لا يزال بإمكان المتكلم أن

يدّعــيَ أن صمته لم يكن مقصودا على الإطلاق، وأنّــه لم يكن ينوي إنتاج هذا النوع من الامتناع/ الرفض. وإذا ما اســتخدما منهج أوســتن، الذي يتلخص في ترسيخ قيــم مختلفة لملفوظ ما من خلال تحويل خطاب مباشر إلى خطاب غير مباشر (أو من ملفوظات أدائية إلى ملفوظات تقريرية/ وصفية)، فإننا نحصل على النتيجة التالية:

(11) ســألته عن رأيــه في خطيبتي، وظل صامتا. وقد أكدت له أنه يســتطيع أن يتكلم علنا، لكنــه تردد في البداية، ثم أخبرني أن معرفته بها لم تكن كافية، ثم عاد إلى الصمت. في هذه المرحلة بالضبط، أدركت بأنه لم يكن يعتقد أنها جيدة.

وهنا يظهر النطاق الأســاس للمشــكل؛ بحيث يلاحــظ المتكلم صمت وتردد المخاطَب: «ظل صامتا» ثم يعــود إلى نفس الشيء الذي «امتنع الرد عليه». وأخيرا، يستنتج المتكلم عن طريق الفعل التأثيري معنى معينا غير دقيق، وغير مكتسب بوجه نهائي.

خاتمة

نلخّص بإيجاز حالة أفعال الصمت داخل نظرية الأفعال اللغوية:

1) على المســتويين الصوتي (أو الخطي) والانتباهــي[1]، فإن فعل الصمت يعادل صفر؛

2) فعــل الصمت التعاقدي له جانب تبليغــي (محتوى قضوي) مباشر، وجانب تلفظي/ قولي مباشر (التعبير عن حالة ذهنية) وقوة إنجازية مباشرة؛

3) في كثير من الحالات ينطوي فعل الصمــت غير التعاقدي على جانب تبليغي

(1) الوظيفة الانتّباهية من بين الوظائف السّتّة للّغة المشكّلة للحدث اللّغوي إلى جانب الوظيفة التّعبيرية/ الإنفعالية، والوظيفة الشّعرية، والوظيفة الإفهامية، والوظيفة المرجعية، ووظيفة الميتا-لغة/ ما وراء اللّغة؛ الّتي تعود إلى العالم الرّوسي رومان جاكبســون (رائد من روّاد الشّــكلانية الرّوسية)، وتتمثّل غاية هذه الوظيفة في الانتباه للاتّصال والحفاظ عليه إمّا بإبقائه أو إنهائه بحسب الحاجة والغاية من الرّسالة اللّغوية.

(محتــوى قضوي) غير مبــاشر، وجانب قولي (التعبير عــن حالة ذهنية) غير مباشر وقوة إنجازية غير مباشرة؛

4) هناك في بعض الحالات تأويل واحد يتمركز حول الآثار التأثيرية التي تسمح بمنح معنى للامتناع الإنجازي.

عدّدنا في بداية هذا المقال الأســباب التي قد تدفــع المتكلم إلى إنتاج صمت غير متعمد. وفي مقدورنا الآن أن نســأل أنفسنا الســؤال الآتي: لماذا يُفضّل المتكلم [أو المخاطَــب] اللجوء إلى فعل – أو على نحو أعــم، عمل – الصّمت (غير التعاقدي) بدلا من الكلام؟

ترى ميهايلا أن فعل الصمت يُســتخدم كامتناع إما «لتجنّب إحداث آثار، التي من شــأنها أن تتطابق مع حالة المحادثة»، وإمــا «كأداة للحفاظ على مثل هذه الحالة التــي أطلقها أو أوقفها متحــدث آخر» (ميهايــلا، 1977، 418). وتقول أيضا: إن الامتناع من الممكن أن يَحدث في الحالات التــي «يتوقع المرء فيها فعلا لغويا»، أي؛ حيث يكــون الفعل اللّغوي متوقَّعا (التهاني، النصــح، الإنذار...) بدلا من تدخل فعل الصمت. وعلى الرغم من أن هذه المعايير الثلاثة قد تشكل أسبابا معقولة، فإنه يمكننا طلبها إذا ما كانت ستوفّر جرداً شاملاً/ تفصيلياً. بوجه عام، يدرك المتحدّث حقيقة أن شــيئا يقال يمكن أن يتعارض، وأن أي شيء يقال يمكن أن يُشكّلَ تهديدا معينا للمخاطَب أو لنفســه. وذلك من خلال اللجوء عمــداً إلى الصمت اللغوي، بحيث يكون لدى المتكلم إمكانية رفض تحمّل كل مسؤولية، أو عدم الالتزام بإجابة محــددة، أو للتخفيف من حدة ملفوظ لا يمكن أن يصبح بمثابة تهديد له أو للغير[1].

(1) ينبغي أيضا، أن يوضع في الاعتبار –كما لاحظ أوســتن– الأفعال الّتي يمكن القيام بها بكلّ حريّة أو تلــك التي تكون تحت الإكراه، وأنّ التّأثير قد يكــون متعمّدا أو غير متعمّد؛ كما أنّ التّأثير المطلوب قد لا يحدُث، عكس التّأثير غير المرغوب فيه قد يحدث.

هــذا النوع من الصمت يســاهم في الحفاظ على التواصل في مســتوى مقبول لكلا الطرفــين. لأن أي متكلم يتوقع ردة فعل مخاطَبه، ومن الواضح أنه يختار الحل الأقل «إشكالاً» – إلا في الحالة التي يريد فيها المتكلّم استفزاز مخاطَبه. وبهذا المعنى، تكون ميهايلا على صواب. ومع ذلك تظل حقيقة أن فعل الصمت يمكن أن يكون له أيضا أثر مســتفز، ومقنع...إلخ، ناتج عن الفعل الإنجازي الذي يسمّى الفعل التأثيري Acte perlocutoire.

ومن بين الأســباب التي تجعل المتكلم يختار فعل الصمت، يمكن إجمالها فيما يلي: (I) ليس من المفترض أن يقول المتكلم شيئا ما؛ (II) لا يريد قول شيء ما؛ (III) يجب أن يكون تواصله بخصوص شيء ما بطريقة غير مباشرة (رأيه، حالته الذهنية، بُعده عن شيء ما أو شــخص ما للمشاركة في وضعية محادثاتية)؛ (IV) يريد التخفيف من حدة الأمر؛ (V) يريد تســليط الضوء على الملفوظ الــذي يتلفظ به المتكلم أو الذي يتبعــه؛ (VI) يريد إقناع مخاطَبه؛ (VII) يريد اســتفزاز مخاطَبــه؛ (VIII) يريد إثارة انتباه المخاطَب؛ (IX) يريد اســتدعاء مخاطَبه إلى إعادة بناء الرســالة بنشاط أو على الأقل التفكير في محتواها؛ (X) يريد إحداث عملية اســتحضار [استرجاع]...إلخ. وبعبارة أخرى، المتكلم الذي يختار فعــل الصمت قد يكون هدفه أيضا تجاوز إطار دلالي-تداولي صارم للخطاب، وفتح الطريق لبعد رمزيّ-شعريّ للصمت اللغوي المتعمد؛ هذه العملية الأخيرة تستحق بدورها دراسة معمّقة.

لائحة المراجع:

- Austin, J. L. (1970), «Quand dire, c'est faire», Paris: Editions du Seuil.
- Banfi, E. (1999), «Pause, interruzioni e silenzi nella interazione linguistica», in: Banfi, E. (éd.) : Pause, interruzioni, silenzi : Un percorso interdisciplinare, Trento : Editrice Università degli Studi di Trento, 13-56.
- Davidson, D. (1993), «Actions et événements», Paris: Presses Universitaires de France.
- Dominicy, M. (2009), «La théorie des actes de langage et la poésie», L´Information Grammaticale, 121, 40-45.
- Ducrot, O. (1972), «Dire et ne pas dire. Principes de sémantique linguistique», Paris: Hermann.
- Ducrot, O. (1984), «Le dire et le dit», Paris: Éditions de Minuit.
- Grice, H. P. (1957), «Meaning», Philosophical Review, 66, 377-388.
- Grice, H. P. (1975), «Logic and conversation», in Cole P. et Morgan J. (éd.), Syntax and Semantics 3 : «Speech Acts», New York: Academic Press, 45-58.
- Jaworski, A. (1993), «The power of silence», London-New Delhi: Sage Publications-Newbury Park.
- Jaworski, A. (1997), «Silence. Interdisciplinary perspectives», Berlin-New York: Mouton de Gruyter.
- Kerbrat-Orecchioni, C. (1986), «L'implicite», Paris: Armand Colin.
- Kissine, M. (2007), «Les niveaux de sens : Austin revisité», Revue de Sémantique et de Pragmatique, 19-20, 71-88.
- Kissine, M. (2008), «Locutionary, Illocutionary, Perlocutionary», Language and Linguistic Compass, 2/6, 1189-1202.
- Kurzon, D. (1997), «Discourse of silence», Amsterdam-Philadelphia: John Benjamins Publishing Company.
- Martinet, A. (1970), «Éléments de linguistique générale», Paris: Armand Colin.

- Mihailă, R. (1977), «Le silence en tant qu'acte de langage», Revue roumaine de linguistique, XXII, 4, 417-421.
- Mikšić, V. (2005), «Des silences linguistiques à la poétique des silences. L'oeuvre de Stéphane Mallarmé», thèse de doctorat, Université Libre de Bruxelles.
- Milner, J.-C. (1973), «Arguments linguistiques», Paris: Mame.
- Neuberg, M. (1993), «Philosophie de l'action. Contribution critique à la théorie analytique de l'action», Gembloux: Académie royale de Belgique.
- Saville-Troike, M. (1985), «The place of silence in an integrated theory of communication», in: Tannen, D., M. Saville-Troike (éd.) : Perspectives on silence, Norwood (New Jersey): Ablex Publishing Corporation, 3-18.
- Searle, J. R. (1972), «Les actes de langage. Essai de philosophie du langage», Paris: Hermann.
- Searle, J. R. (1998), «La construction de la réalité sociale», Paris: Gallimard.
- Searle, J. R & D. Vanderveken (1985), «Foundations of illocutionary logic», Cambridge: Cambridge University Press.
- Sobkowiak, W. (1997), «Silence and markedness theory», in: Jaworski, A. (éd.) : Silence. Interdisciplinary perspectives, Berlin-New York: Mouton de Gruyter, 39-61.
- Tannen, D & M. Saville-Troike (1985), «Perspectives on silence», Norwood (New Jersey): Ablex Publishing Corporation.
- Van den Heuvel, P. (1985), «Parole, mot, silence. Pour une poétique de l'énonciation», Paris: Librairie José Corti.
- Vermazen, B. (1985), «Negative acts», in: Vermazen, B., M. B. Hintikka (éd.) : Essays on Davidson : Actions and events, Oxford : Clarendon Press, 93-104.
- Verschueren, J. (1985), «What people say they do with words : Prolegomena to an empirical-conceptual approach to linguistic action», Norwood (NJ): Ablex Publishing Corporation.
- Von Wright, G. H. (1963), «Norm and action», London: Routledge & Kegan Paul.

(*) فاندا ميكسيك Vanda Mikšić (1972، شبنيك، كرواتيا) شاعرة، ومترجمة، وأستاذة باحثة، درست بكلية الآداب «زغرب»، وفي جامعة بروكسيل الحرة. حاصلة على شهادة الدكتوراه في موضوع: «من الصّمت اللّغوي إلى شاعرية الصّمت – أعمال ستيفان مالارمي» سنة 2005. عملت ما بين سنة 1995 و 2003 في السّفارة الكرواتية في بروكسيل وفي باريس. وتدرّس حاليا مادة التّرجمة في جامعة «زادار» الكرواتية، وهي عضو أيضا في «مختبر اللّسانيات النّصية والتّداوليات العِرفانية» – جامعة بروكسيل الحرة. إلى جانب خمسة عشر مقالاً علمياً، نُشر لها كتاب بعنوان: «تأويل النصوص الأدبية والترجمة»، فضلا عن خمسين عملاً مترجماً لكُتّاب إيطاليين وفرنسيين. بالإضافة إلى ترجمة أعمال شعرية كرواتية إلى الفرنسية. ونورد على سبيل المثال لا الحصر بعض عناوين إصداراتها بمختلف أنواعها:

أولا– **الكتب**:

• Question /Ecriture de l'identité. Littérature belge francophone, numéro spécial de Knjizevna smotra, Zagreb, 2016.

• Interprétation littéraire et traduction. De ka recherche des effets poétiques à une poétique de ka traduction, Meandar Media, Zagreb, 2011.

ثانيا– **المقالات**:

• Le dédroit entre deux libertés impossibles ou le travail poétique de Zvonimir Mrkonjié, Avant–propos pour le livre de poésies, in: MRKONJIC, Zvonimir: Table des matières, L'Ollave, Rustrel, 2015, p. 9–13.

• Couleur de la bora, exaltation des cheveux: analyse linguistique d'un poème de Branko Cegec, in: Banks, David (dir): Aspects linguistiques du texte poétique, L'Harmattan, Paris, 2011, p. 245–262.

ثالثا– **الترجمات**:

v Michel Foucault: Lijepa opasnost (Le beau danger), Meandar Media, Zagreb, 2015.

v Umberto Eco: povijest ljepote (Storia della bellezza), essai, Hena Com, Zagreb, 2004.

للاطلاع أكثر، راجع الرابط الآتي:

https: / /unizd.academia.edu /vandamiksic

(**) باحث في التداوليات وتحليل الخطاب، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة عبد المالك السّعدي، تطوان/ المغرب.